المستشرقون اليهود ومحاولة التهوين من قدسية بيت المقدس في القرآن الكريم والأحاديث النبوية

الأستاذ الدكتور/ حسن عبدالرحمن السلوادي

عميد البحث العلمي والدراسات العليا — جامعة القدس المفتوحة

مقدمة

يتناول هذا البحث مسألة مهمة تتصل بالصراع العربي-الإسرائيلي، الذي بدأت معالمه وآثاره تلقي ظلالها على أرجاء هذه المنطقة مع بروز الصهيونية السياسية في مطلع هذا القرن، ونجاحها في استقطاب العديد من القوى الفاعلة في الغرب، ولا سيما في بريطانيا، حيث برزت الحركة البروتستانتية كثمرة من ثمار الإصلاح الديني، وأصبح للعهد القديم في منظور هذه الحركة قيمة كبرى تجلت في تبني أتباعها للأهداف والتصورات السياسية للحركة الصهيونية، وإحساسهم بأن الإيمان بتلك التصورات، والسعي إلى تحقيقها يشكل جزءاً رئيساً من الإيمان بمباديء المسيحية ذاتها، وهوما أدى إلى بروز مصطلح المسيحية الصهيونية فيما بعد.

وفي إطار هذه النظرة التراثية التي جمدت تاريخ فلسطين، واختزلت مراحله المتعاقبة عبر آلاف السنين في الإطار الزمني للعهد القديم، أصدر وزير الخارجية البريطاني بلفور وعده عام 1917م لزعماء الحركة الصهيونية آنذاك، بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وكان ذلك -حسب رأي العديد من المؤرخين العرب والمسلمين- بمثابة حلقة من حلقات الحروب الصليبية، ورد غربي معاصر على واحد من أبرز رموزها وهو الناصر صلاح الدين الذي رفع راية الجهاد، وحرر بيت المقدس من وطأة الاحتلال الصليبي.

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

وقد كان بيت المقدس في خضم هذه الأحداث القديمة والمعاصرة رمز الصراع ومفتاحه، وقد واكب قضيتها على الدوام أطروحات تتعلق بالسيادة والإرث التاريخي والحقوق الدينية لهذا الفريق أو ذاك من الأطراف المتصارعة، وما زالت حتى الآن تشكل محوراً رئيساً من محاور الصراع الدائر في المنطقة بأبعاده المختلفة، وعلى رأسها الجانب الفكري والأيديولوجي حيث يقوم المستشرقون اليهود خاصة بجهود بحثية مكثفة ضمن مخطط مرسوم هدفه التهوين من قدسية بيت المقدس ومكانتها في الإسلام من جهة، وتوكيد أهميتها ومركزية النظرة إليها في التصورات اليهودية من جهة أخرى.

وسيظهر من خلال البحث أن هذه الجهود الفكرية المنظمة تشكل بخطها الثابت ونهجها المحدد نقطة جذب تلتقي عندها كتابات أولئك المستشرقين المهتمين بتاريخ بيت المقدس وحضارتها عبر العصور، وأرى أن مكمن الأهمية في هذه الجهود يتمثل في أمرين:

الأول: إن ما يطرحه المستشرقون والكتاب اليهود منهم -خاصة- يشكل الغطاء الأيدلوجي، والأرضية الفكرية التي تنطلق منها السلطات الإسرائيلية لتنفيذ سياساتها وممارساتها الرامية لطمس معالم المدينة وتهويدها.

الثاني: ويتمثل في إحساس الباحث بأهمية الاطلاع على مناحي التفكير عند أولئك المستشرقين، ومعرفة النتائج التي تمخضت عنها بحوثهم، والتي نجحوا في إيصالها إلى وجدان قطاع عريض من الناس، ولا سيما في العالم الغربي، حيث أوشكت الأطروحات التي بثوها في مؤلفاتهم أن تصبح قناعات راسخة لدى الكثيرين.

لقد تركزت جهود أولئك المستشرقين في بعدين اثنين، يبدوان في الظاهر مختلفين لكنهما يتكاملان، ويتضافر أحدهما مع الآخر وصولاً إلى الغاية المنشودة، وهي التدليل على المكانة الهامشية التي تحتلها القدس في التصورات الإسلامية والمسيحية، ومقابل ذلك السعي لإثبات أهميتها ومكانتها المركزية في التصورات اليهودية، أما البعد الأول فيتعلق بالجانب الديني، ونعرض فيه محاولات أولئك الباحثين لتأويل النص القرآني، والتشكيك في الأحاديث النبوية المتعلقة بفضائل بيت المقدس، ويتعلق البعد الثاني بالجانب التاريخي والحضاري من زاوية التشكيك في الرواية التاريخية، والتقاط الروايات الضعيفة والمرجوحة،

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

والتركيز عليها باعتبارها أدلة دامغة على صحة أقوالهم وافتراضاتهم. وستركز هذه المقالة على الجانب الأول المتعلق بالبعد الديني المتعلق بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية. وفي ما يأتي عرض مفصل لهذه الجهود مشفوع غالبا بردود ومناقشات نرجو أن تكون مجدية ومحققة للغرض الذي سيقت من أجله، وهو إبراز الحقائق الدينية الناصعة والمعطيات التاريخية الثابتة التي أغفلها بعض المستشرقين، وتعمدوا طمسها وتحريف دلالاتها ومقاصدها بما يتناسب والأهداف التي سعوا إلى تحقيقها.

البعد الديني

لاحظ الباحث أن هناك اتجاهات عدة، تركزت حولها جهودُ المستشرقين اليهود في محاولاتهم التشكيك في قداسة بيت المقدس من الزاوية الدينية، وتبدو هذه الاتجاهات مترابطة يكمل أحدها الآخر، وتتسم في ظاهرها بالموضوعية والحياد، لأن أصحابها يدعمون مواقفهم بالرجوع إلى المصادر الرئيسية في العقيدة والفكر الإسلاميين، ويعتمدون في تسويغ أحكامهم على الروايات التفسيرية والحديثية المبثوثة في المصادر التراثية والدينية والتاريخية.

وقبل أن نعرض لمضمون هذه الاتجاهات وأهدافها أرى ضرورة الإشارة إلى أن العديد من المستشرقين، ينطلقون جميعاً من نقطة بدء واحدة هي أن قداسة بيت المقدس وما يرتبط بها من معتقدات وتصورات، لاتتسم بالأصالة، ولاتعزى إلى عوامل ذاتية نابعة من صميم الديانة الإسلامية، وإنما هي مجرد تقليد لما تقرر بشأن هذه القداسة في الأصول الدينية والتصورات العقدية في الديانة اليهودية (محمود دياب، 1976: 145، Prawer, 1972: 12). تقول حوا لاتسروس يافه في هذا الصدد: "لقد استوعب محمد من المصادر اليهودية والمسيحية فيما استوعبه فكرة قدسية القدس" (في آمنون كوهين، 1990: 25) وتضيف في موضع آخر: "وحتى بعد تحويل القبلة فإن هالة من القدسية استمرت في تتويج هذه المدينة التي تبعد عن مهد الإسلام، هالة أضفاها عليها الزهاد والمتصوفة

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

المسلمون بشكل خاص حيث كانوا قريبين من المباديء اليهودية والمسيحية" (آمنون كوهين، 1990: 36).

ويبدو أن أولئك المستشرقين قد أغفلوا حقيقة مهمة تتعلق بكنه الديانات التوحيدية الثلاث وحقيقتها، فاليهودية –في جوهرها– لا تنعزل عن الديانتين اللاحقتين، بل تصدر مثلهما عن معين واحد، وهي تشكل حلقة أولى في سلسلة الرسالات السماوية التي تدرَّج نزولها زمنياً لظروف اقتضتها طبيعة التطور الإنساني ومسيرته نحو التوحيد الحضاري (عون الشريف قاسم، 1979: 34) وقد تمثلت الحلقة الأخيرة بالدين الإسلامي، الذي جاء ليكون خاتما لهذه الرسالات ومكملاً لها، وملبياً لحاجات البشرية المادية والروحية في كل زمان ومكان[1] قال الله تعالى: "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ" (الشورى: 13). وبما أن المسلمين يقرون بنبوة الرسل والأنبياء المبعوثين إلى الأمم والأقوام السابقين، ولا يفرقون بين أحد منهم، فليس من الغريب أن يحافظوا على الأماكن التي تنسب إليهم ويتعهدوها بالرعاية والاهتمام، وهذا لايدخل في باب المشابهة والتقليد، بل هو جزء من عقيدة المسلمين التي جعلت للمدينة المقدسة مكاناً مميزاً في تصوراتهم، ورسخت قداستها، وصبغتها بالصبغة الإسلامية في إطار من العدل والتسامح الذي تميز به المسلمون في تعاملهم مع أبناء الديانات الأخرى.

على أن المستشرقين اليهود حاولوا زعزعة المكانة التي تحتلها القدس في التصورات الإسلامية، والتشكيك في أهميتها ومكانتها لدى المسلمين، وكما أشرنا سابقا، فقد اتسعت جهودهم لتشمل العديد من المحاور لعل من أبرزها محاولة تأويل النصوص القرآنية، وحرفها عن مقاصدها الرئيسية بطريقة تتلاءم مع أهدافهم، وإبراز التناقض في الروايات الحديثية، والتشكيك في الأحاديث النبوية الشريفة التي أجمع المسلمون على صحتها، ومن جهة ثانية: التعويل على أقوال من أطلقوا عليهم اسم (المعارضين لقدسية القدس) وإبراز هذه المعارضة بصورة توحي أنها تمثل اتجاها عريضاً ومؤثراً في الفكر العربي الإسلامي، وفي ما يأتي عرض موجز لهذه الاتجاهات:

1- تأويل النص القرآني

النص القرآني الذي نعنيه هنا هو الآية الكريمة التي افتتحت بها سورة الإسراء أو بني إسرائيل، وتتضمن إشارة صريحة إلى رحلة الإسراء والمعراج، المعجزة التي أدخلت بيت المقدس خاصة، وفلسطين بوجه عام في صميم الوجدان الإسلامي، وربما ربطتهما مع الإسلام برباط متين لا تنفصم عراه إلى يوم الدين.

لقد تحدث علماء المسلمين بإسهاب عن دلالات هذه المعجزة الربانية، وتوقفوا طويلاً عند جزئياتها كما وردت في كتب الأحاديث الموثوقة، وقد رأى بعضهم أن في الإسراء إرهاصاً أو إعلاناً مبكراً عن الفتح الإسلامي للمدينة المقدسة، وقد كان الرسولﷺ أول فاتح لها، وكان ذلك بمثابة عهد لأمة الإسلام بأنها ستفتح من بعده عملياً بعد أن قام بفتحها نظرياً، وتسلم مفاتيحها من إخوانه الأنبياء[2]. وذهب أخرون إلى أن حادثة الإسراء تربط بين عقائد التوحيد من لدن سيدنا إبراهيم وإبنه إسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين والمرسلين ﷺ فقدوم النبيﷺ إلى المسجد الأقصى، وصلاته بالأنبياء وإمامته لهم تتضمن إعلاناً صريحاً وإقراراً من أنبياء الله السابقين عن انتهاء استخلاف أقوامهم بانتهاء مسؤوليتهم عن الأرض المقدسة، وتحويل هذه الخلافة مع مسؤوليتهم الإشراف على الأرض المباركة إلى أمة محمدﷺ وهو إشراف متصل ومستمر حتى قيام الساعة[3]. وقد أجمل ابن كثير هذه المعاني في تفسيره لآية الإسراء حيث قال (ابن كثير، 1966، 13: 42):

> هو بيت المقدس ومعدن الأنبياء من إبراهيم الخليلعليه السلام، ولهذا جُمعوا له ﷺ كلهم، فأمَّهم في محلتهم ودارهم، فدلَّ أنه ﷺ هو الإمام المعظم والرئيس المقدم، فكانت صلاته ﷺ في ليلة الإسراء إقراراً مبينا بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى البشرية أخذت تمامها على يد محمدﷺ بعد أن وطأ له العباد الصالحون من رسل الله الأولين.

لقد أدرك المستشرقون اليهود عمق الرابطة التي رسختها آية الإسراء بين الإسلام وبيت المقدس، فحاولوا النفاذ إلى ثغرة تتيح لهم فرصة التشكيك، أو على الأقل التهوين من

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

شأن هذه الرابطة، وإضعافها، فوجدوا ضالتهم في ذلك الخلاف اليسير الذي جرى بين بعض علماء المسلمين حول طبيعة الإسراء والمعراج، هل هو تجربة روحية أو جسدية؟! وهل حدث في اليقظة أو في المنام؟ ولبيان فحوى هذا الاختلاف الذي مهد الطريق للمستشرقين لتأويل آية الإسراء بطريقة تخدم أغراضهم ومنطلقاتهم نورد تعليقاً للإمام القرطبي أجمل فيه الآراء المتعارضة، وناقشها مبيناً رأيه فيها حيث قال (القرطبي، 1986، 3: 108):

> ذهبت طائفة إلى أن الإسراء بالروح، ولم يفارق شخصه مضجعه، وأنها كانت رؤيا رأى الحقائق فيها، ورؤيا الأنبياء حق. ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحكي عن الحسن وابن اسحق، قالت طائفة كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح واحتجوا بقول الله تعالى: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ" (الإسراء: 1). قالوا: لو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فإنه يكون أبلغ في المدح، وذهب معظم السلف من المسلمين إلى أن الإسراء كان بالجسد، وفي اليقظة، وأنه ركب البراق في مكة، ووصل إلى بيت المقدس، وصلى فيه ثم أسرى بجسده، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، ولو كان مناما لقال بروح عبده، ولم يقل بعبده وقوله: "ما زاغ البصر وما طغى" (النجم: 17) يدل على ذلك.

ويبدي القرطبي شيئاً من الشك في رواية كل من عائشة ومعاوية رضي الله عنهما فيقول: "إن عائشة كانت صغيرة لم تشاهد، ولا حدثت عن النبيﷺ وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت غير مشاهد للحال، ولم يحدث عن النبيﷺ (القرطبي، 1986، 3: 108).

ونحا سيد قطب منحى آخر في تناوله لهذه المسألة حيث قال (سيد قطب، 1987: 2211 بتصرف):

إننا لا نرى محلا لذلك الجدل الطويل الذي ثار قديماً، والذي يثور حديثا حول طبيعة هذه الواقعة المؤكدة في حياة الرسولﷺ وذلك لأن المعتاد المرئي في عالم البشر ليس هو الحكم في تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله. وهذه التجلية لمكان بعيد أو عالم بعيد والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملأ الأعلى والتلقي عنه، وقد صدقه أبو بكرﷺ وهو يرد المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول: إني لأصدقه بأبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء

وسواء أكانت رحلة الإسراء والمعراج بالروح أم بالجسد، أم كانت رؤيا في المنام أو رؤيا في اليقظة، فإن ثمة إجماعاً بين المسلمين على أنها حق لا يعتريه باطل، وأن المسجد الأقصى المذكور في الآية هو عينه الموجود في بيت المقدس، وذلك خلافاً لما ذهب إليه بعض المستشرقين الذين استغلوا الاختلاف في الآراء حول طبيعة الإسراء والمعراج، وعمدوا إلى تأويل الآية تأويلاً ينفي عن بيت المقدس سبباً من أهم أسباب قداستها ومكانتها المميزة في الإسلام.

وتتلخص فكرة هذا التأويل فيما كتبه بوهل (F.Buhl) تحت مادة القدس في الموسوعة الإسلامية، فقد قرر ان ما حدث للرسولﷺ في رحلته إلى بيت المقدس يدخل في باب الرؤية والكشف، ورجح أن الرسول محمدﷺ ربما فهم منذ البداية أن المسجد المذكور في الآية الكريمة إنما هو مكان في السماء، وليس المسجد الذي بني فيما بعد في مدينة بيت المقدس (محمود إبراهيم، 1985: 47). أما إسحاق حسون فيؤكد من جهته أن علماء المسلمين لم يتفقوا جميعاً على أن المسجد الأقصى هو مسجد القدس، إذ رأى بعضهم أنه مسجد في السماء يقع مباشرة فوق القدس، أو مكة، ويستعين بهذا الصدد بمقال كتبه المستشرق الفرنسي ديمومين حاول من خلاله التمييز بين القدس السماوية، والقدس السفلى (الواسطي، تحقيق إسحق حسُّون، 1979: 15). وقد التقط العديد من المستشرقين اليهود هذه الفكرة، وروجوا لها، نذكر منهم على سبيل المثال حوا لاتسروس يافه التي كتبت مقالاً أكدت فيه أن المسجد المذكور في آية الإسراء "قد فهم منذ البداية

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

أنه مسجد بعيد قصي سماوي، ولم يقصد منه بالطبع ذلك المسجد الذي لم يقم في القدس إلا زمن الأمويين" (في آمنون كوهين، 1990: 39). وقد دعمت لاتسروس فكرتها بمقال كتبه جوزيف هوروفيتش حول الموضوع نفسه أكد فيه أن المسجد الذي عنته آية الإسراء إنما هو "مصلى سماوي يقع في القدس السماوية العليا" (في آمنون كوهين، 1990: 38)، وقال (في آمنون كوهين، 1990: 39):

> ينبغي أن نفهم أقوال مفسري القرآن الأقدمين على هذا النحو حيث يجمعون عادة على أن المسجد الأقصى معناه بيت المقدس، وحسب رأيه فهم يقصدون القدس العليا، غير أن المصطلحات اختلطت على مر الأجيال، وفهم المسجد الأقصى الذي في القدس العليا على أنه موجود في القدس الحاضرة، أو القدس السفلى التي تقع في فلسطين)

وتعلق لاتسروس على ذلك قائلة "وهذا مثال آخر للحقيقة المعروفة أن لا أهمية حاسمة للحقائق التاريخية والمعاني الأصلية للآيات في تاريخ الأديان" (في آمنون كوهين، 1990: 39).

وهناك رأي أغرب من ذلك نقله محمود دياب عن كاتب في مجلة Jewish Observer عدد14 يوليو1967م نفى فيه وجود المسجد الأقصى، وجاء فيه (محمود دياب، 1976: 115):

> أن النبي محمد لم يحدد بتاتا في القرآن الموقع الجغرافي الدقيق للمسجد الأقصى، ولذلك كان المفسرون الأوائل يعتبرون أن المسجد هو المسجد الموجود في المدينة المنورة وأن المسجد الحرام هو مسجد مكة، أما القول بأنه مسجد بيت المقدس فما ذلك إلا تخمين جاء في وقت متأخر سببه على الأرجح تأثر مفسري القرآن بأمواج المثقفين من الشعوب الأخرى الذين اعتنقوا الإسلام، وأدخلوا معهم ثقافاتهم الأصلية، وقدراً كبيراً من الأساطير نقلوها عن دياناتهم السابقة.

ومن الواضح أن نظرة المؤلف حيال الإسلام ونبيه المصطفىﷺ لم تكن موضوعية، أو نزيهة، فهو لايتردد في الإعلان عن موقفه المعادي للإسلام والمسلمين حيث ينفي النبوة عن سيدنا محمدﷺ وينكر بالتالي رسالة الإسلام، ويؤكد من باب التحامل المغرض والتعصب المقيت أن القرآن من وضع محمدﷺ وليس وحياً من السماء، أما رأيه حول مكان المسجد الأقصى، فلا يخلو من الغرابة ولا يستند إلى دليل، ومع ذلك فإن مثل هذه الأراء تتردد في كتابات العديد من المستشرقين ويستشهد بها كحقيقة مسلمة دون مناقشة أو تقويم، ومع أن ذلك يتنافى مع أبسط قواعد المنهجية العلمية، فإن قبوله والأخذ به وبما يشابهه أيضا لايبدو نشازاً أو مستهجناً في الوسط الإستشراقي مادام فيه انتقاص لقداسة المسجد الأقصى، وتهوين لمكانة بيت المقدس وأهميتها في التصورالإسلامي.

ولعل مصدر الغرابة في هذا التأويل أن أصحابه ينسبونه إلى مصادر تراثية: عربية وإسلامية دون تحديد لأسمائها؛ لأنه في الحقيقة لم يرد في أي من هذه المصادر، ولم يشر إليه أي باحث من المسلمين، وكما قال محمود إبراهيم (1985: 49)

> فإن أحداً من المسلمين لم يأخذ به، ولم يتقبله منذ أن تنزلت سورة الإسراء وإلى يومنا هذا، وما فسرت به الآية القرآنية وما أخذ به المسلمون منذ أن نزلت آية الإسراء في تفسيراتهم، وفي نظرتهم إلى القدس، وإلى صخرة القدس التي عرج بالرسول منها ينفيان بصورة قاطعة أي تصور للرسولﷺ أو لأتباعه بأن المسجد الأقصى مجرد تخيل في السماء، وليس على الأرض، وفي مدينة القدس على وجه التحديد.

ويبدو لي أن الفكرة برمتها مستندة من الكهنوت المسيحي، وبعض أدبيات التراث الديني اليهودي حيث نجد فيهما مصطلحيْ "أورشليم العليا"، و"أورشليم السفلى"، وهما يعنيان في المسيحية أن أورشليم الروحية العليا قد ورثت مكانة القدس السفلى، وصارت هدفاً للمؤمنين، أما القدس السفلى فهي شهادة حية على رفض الله لليهود وإقرار بنبوءات المسيحعليه السلام بالخراب، حيث أشرف على المدينة من أعلى جبل الزيتون، وقال لتلاميذه مشيراً إلى أبنية جبل المعبد: "الحق أقول لكم إنه لايترك ها هنا حجر على حجر لا

ينقض" (إنجيل لوقا، 19: 42-43). ويعلق يهوشواع براغ على هذه النبوءة مؤكداً :"أن القدس فقدت وفق هذه الرؤية المسيحية الجديدة معانيها وأهميتها" (في آمنون كوهين، 1990: 53)؛ لأن ما يعني المسيحيين -في الواقع- ويثير اهتمامهم هي القدس السماوية العليا لا القدس الأرضية السفلى بحدودها الجغرافية المعروفة، وهذا ما سعى المستشرقون إلى ترسيخه من خلال إشاعة هذه المفاهيم وترويجها على أنها نابعة أيضاً من صميم الشريعة الإسلامية، وذلك بهدف التدليل على مركزية القدس في التصورات اليهودية، وإثبات مكانتها الثانوية في الديانتين الإسلامية والمسيحية.

غير أن المستشرقين أخفقوا -على ما يبدو- في تحقيق هذه الأهداف، ولم يتوصلوا بإلحاحهم على فكرة الفصل بين القدس السماوية العليا والقدس الأرضية السفلى إلى النتائج التي كانوا يتوقعونها، وقد اضطرت حوا لاتسروس إلى الإعتراف بهذه الحقيقة بعدما حاولت هي الأخرى الغمز من صحة واقعة الإسراء، والتشكيك في روايتها حيث قالت: "إن الإسراء والمعراج أصبح من الأسس التي ترتكز عليها العقيدة الإسلامية، وقد تجذرت حكايته في أفئدة المسلمين وكان لها تأثير أدبي على غير المسلمين كدانتي مثلا" (في آمنون كوهين، 1990: 40).

وأُضيف إلى ما ذكرته لاتسروس أن وضوح النص القرآني في تقرير حادثة الإسراء والمعراج وتوثيقها، وتحديد اسم المسجد الأقصى وتعيينه، وهو نادراً ما يحدث في القرآن الكريم، إضافة إلى فرض الصلوات الخمس على المسلمين في أثناء عروجه ﷺ إلى السماوات العلا، واتخاذ بيت المقدس قبلة للمسلمين طيلة العهد المكي، كل ذلك أسهم في تعزيز مكانة بيت المقدس الروحية في الإسلام إلى حد أصبحت فيه هذه التجربة الفريدة مصدر إلهام في الأدب العربي، ولاسيما أدب الصوفية والأدب الشعبي، وأدب الجهاد الذي وجد في دلالاتها الروحية ورموزها التراثية معيناً لا ينضب لحث المسلمين على الثبات والمرابطة، ومواجهة الأخطار والشدائد التي ألمت بفلسطين، وما زالت تلم بها في وقتنا الحاضر.

2- التشكيك في الأحاديث النبوية

عمد فريق من المستشرقين وعلى رأسهم الدكتور كستر من معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية بالجامعة العبرية إلى التشكيك في الأحاديث النبوية التي تمتدح بيت المقدس وتتحدث عن فضائله، وتنوه بفضل مسجده وأهميته في الإسلام، وأهمها حديث "شد الرحال" الذي يروى متواتراً عن رسول الله ﷺ بالصيغة التالية: "لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ ومسجد الأقصى" (Kister, 1969: 173-196). والفكرة التي ينطلق منها هذا الباحث -وهو من المتخصصين في علم الحديث- أن الإجماع على حرمة المساجد الثلاثة لم تتبلور بوضوح إلا في مطلع القرن الثاني للهجرة، أما قبل ذلك، فقد ظهرت اتجاهات قديمة استهدفت تعظيم حرمة مكة، أو حرمة مكة والمدينة مع التقليل من حرمة بيت المقدس. ويورد كستر للتدليل على ما قال مجموعة من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ﷺ تتناقض في مضمونها مع حديث شد الرحال السابق، وقد استقاها من مخطوطات ومجاميع الصحيحين، ولم ترد في غيرهما من كتب الأحاديث المعتبرة، ومنها قوله ﷺ : "أحق المساجد أن يزار وتشد إليه الرحال المسجد الحرام ومسجدي" وقوله :"أنا خاتم الأنبياء ومسجدي خاتم مساجد الأنبياء"، "وصلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة في سواه من المساجد إلا المسجد الحرام"[4]. على أن كستر يقر في موضع آخر من بحثه أن التحوط بالنسبة إلى قداسة القدس إنما قصد منه ألا تكون محجاً للناس مثل مكة؛ لأن بعض المسلمين كادوا يساوون بين المسجد الحرام في مكة والمسجد الأقصى في القدس، ويستشهد على ذلك ببيت للفرزدق يقول فيه (Kister, 1969: 173-196):

وبيتان بيت الله نحن ولاته ... وبيت بأعلى إيلياء مشرَّفُ

وكما جرت العادة فقد انتقلت الفكرة التي توصل إليها كستر إلى العديد من المستشرقين مثل سيفان وحسون وعوفر لفني الذين رددوها بإلحاح على أساس أنها حقيقة مسلمة بصحتها وغير قابلة للطعن أو المناقشة (Ofer Livne, 1985: IX)، وقد ترتبت على

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

ذلك نتائج عدة تندرج كلها في إطار الانتقاص من مكانة بيت المقدس والتهوين من شأنها في الإسلام، فالقول إن هذه الأحاديث ترجع إلى القرن الثاني للهجرة، وما بعده يعني أمرين يتصل أحدهما بالآخر ويتعلق به:

الأول: إن قداسة القدس منوطة إلى حد بعيد بالتطورات العسكرية والضغوط السياسية التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ بداية القرن الثاني للهجرة وما تلاها من قرون ترسخت خلالها مكانة القدس، وأصبحت رمزاً وجدانياً، لا خلاف عليه حسب تعبير يوسف دروري (في آمنون كوهين، 1990: 106).

الثاني : إن الأحاديث والروايات التي تدخل في باب فضائل القدس هي وليدة تلك الأحوال والظروف السياسية المتقلبة، وبالتالي فإن نسبتها إلى الرسول ﷺ مشكوك فيها، ولا مجال لإدراجها ضمن الأحاديث الصحيحة والروايات الثابتة في السنة النبوية الشريفة (Ofer Livne, 1985: IX).

وفيما يتعلق بالأمر الأول، فإن هناك شبه إجماع بين المستشرقين اليهود خاصة على أن ظاهرة الاهتمام بالقدس وبفضائلها، وتأكيد قداستها في الإسلام إنما نمت وترعرعت مع قيام الدولة الأموية، وذلك لغايات ومكاسب سعى حكام الأمويين لتحقيقها، يقول إسحق حسون: "إن معاوية الذي بويع بالخلافة في القدس هو الذي أطلق على القدس وبلاد الشام اسم الأرض المقدسة، وهو الذي أشاع عن القدس أنها أرض المحشر والمنشر نكاية بمعارضيه، وتثبيتاً لأركان حكمه في بلاد الشام" (Hasson, n.d., 169-176 ومحمود إبراهيم، 1985: 45-48)، وفي مناسبة أخرى يؤكد حسون أن كثيراً من الأحاديث والروايات عن فضائل القدس وضعت بهدف جمع الأموال لإعادة بناء قبة الصخرة وترميمها إثر الزلزال الذي أصابها عام 407هـ، وقد تشجع صاحب المبادرة في ذلك، وهو خطيب الأقصى على الربط بين القدس وكل من مكة والمدينة بسبب ما وقع للركن اليماني في الكعبة من تصدع، وما أصاب أحد الأسوار الخارجية لقبر الرسول ﷺ من سقوط في السنة نفسها" (Hasson, n.d., 169-176).

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

أما جولدتسيهر الذي وصفته حوا لاتسروس "بالباحث الأعظم" (في آمنون كوهين، 1990: 37) فقد كان أكثر صراحة حيث قال: "إن الأحاديث المروية عن قداسة القدس لم تكن إلا أسلحة في الحرب التي كانت دائرة بين عبدالملك بن مروان وعبد الله بن الزبير" (محمود إبراهيم، 1985: 47)، وهذا يعني أن الأمويين هم الذين أضفوا على القدس هالة القدسية، وأشاعوها بين الناس بغية تهيئتهم لقبول فكرة تحويل الحج من مكة المكرمة إلى القدس، وهي الفكرة التي عزم عبد الملك على تنفيذها لأسباب سياسية واضحة، وقد اعتمد جولد تسيهر في الاستدلال على ما ذهب إليه برواية أوردها المؤرخ الشيعي أحمد بن جعفر اليعقوبي على سبيل التحامل والغض من مكانة الأمويين، ويقول فيها (اليعقوبي، 1358، 3: 537):

> ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك أن عبد الله بن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة، فحين ضج الناس بنى على الصخرة قبة، وعلق عليها ستور الديباج، وأقام لها سدنة وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة، وأقام بذلك أيام بني أمية.

والواقع أن هذه الرواية- كما أشار غير واحد من الباحثين- ومنهم نفر من المستشرقين اليهود، لم ترد في المصادر التاريخية الموثوقة، ويكاد المرء يشتمُّ منها رائحة التعصب المذهبي والمتحامل الذي قصد منه تشويه سمعة الأمويين بإظهارهم بمظهر من حاول هدم قواعد الدين وأركانه (في آمنون كوهين، 1990: 17)، ويبدو أن اليعقوبي- كما قال محمود إبراهيم- لم يكن متحرزاً فيما أورده، ولا منسجماً مع نفسه في رواياته المتناقضة، فهو بعد صفحتين فقط من إيراده لهذه الرواية، يذكر أنه في سنة68هـ وقفت أربعة ألوية بعرفات: محمد بن الحنفية في أصحابه، وابن الزبير في أصحابه، ونجدة بن عامر الحروري في أصحابه، ولواء بني أمية (محمود إبراهيم، 1985: 57). وقد أكد غويتن هذه الحقيقة بقوله (في آمنون كوهين، 1990: 17):

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

> إن المصادرالقديمة باستثناء اليعقوبي لم تشر إلى هذه الرواية، بل على العكس نصت المصادر على أن عبد الملك شخصياً بعث مجموعات من الحجاج إلى مكة.

وتتابع حوا لاتسروس أستاذها غويتن في نفي هذه القضية فتقول (في آمنون كوهين، 1990: 38):

> إن الواقع يختلف كثيرا عن هذه القضية، فليس هناك أي حقيقة تاريخية في هذه الروايات، وإنما هي من وضع مؤرخ شيعي عاش في القرن التاسع الميلادي وهو اليعقوبي الذي هدف منها إلى الدس على الأمويين، وقد تأثربه مؤرخون وجغرافيون مسلمون، وحتى بيزنطيون، ولكن مشاهير المؤرخين المسلمين لا يذكرون هذه المحاولة الجريئة لإقامة مكان منافس للكعبة الذي يشك الباحثون اليوم، وعلى رأسهم أستاذي المرحوم غويتن في صحة هذه الحكاية.

ويبدو أن مسارعة غويتن إلى نفي هذه الرواية وتكذيبها، واعترافه الشكلي ببحثها في إطار من النزاهة والموضوعية يثير لدى القاريء العديد من الأسئلة، لعل أهمها: هل كان الباحث سيجشم نفسه عناء الوصول إلى مثل هذه النتيجة لو أحس أن في المسألة من أساسها انتقاصاً من مكانة المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، أو أن إصراره على التشكيك في الرواية يصب في الاتجاه نفسه الذي كرس له جهوده، وهو الحط من مكانة القدس، وإثبات مكانتها الهامشية في الإسلام؟ إن مجمل المواقف التي تبناها الباحث ترجح الاحتمال الثاني، لأنه أيقن –على ما يبدو– أن مجرد التفكير في هذه المسألة رغم مخالفتها لقواعد الشريعة الإسلامية، ومعارضة المسلمين لها تتضمن إيحاء بالمنزلة السامية التي تحتلها القدس في نفوس المسلمين، ولو لم تكن لها مثل هذه المنزلة لما اختارها عبد الملك فيما نسب إليه محجاً بدل الكعبة، وهذا يتعارض مع اتجاه غويتن العام، ونهجه في نفي تلك القداسة عن المدينة، وتهوين صلتها بالإسلام والمسلمين[5]. وبغض النظر عن هذه النوايا، فقد كان حرياً بغويتن وكستر، ومن سار على نهجهما من الكتاب اليهود أن يتعاملوا مع الروايات الحديثية التي تزدحم بها كتب الفضائل خاصة مثل تعاملهم مع الرواية التي بثها

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

اليعقوبي، وذلك بوضعها على مشرحة النقد والتحليل، والنظر إليها من خلال منهجية علمية تراعي القواعد والمعايير التي وضعها علماء الجرح والتعديل للتمييز بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة. على أن غالبية المستشرقين لم يلتزموا بهذه المنهجية العلمية، ولم يطبقوها في أبحاثهم ودراساتهم، وإنما لجأوا إلى التعميم، وحرصوا -كما فعل كستر- على إيراد مجموعة من الأحاديث النبوية والروايات المتناقضة دون التثبت من صحتها بهدف إثارة الشكوك حولها، والطعن في الثابت المجمع على صحته منها، وبخاصة تلك التي تؤكد قداسة القدس،وتنوه بمنزلتها السامية والمميزة في الدين الإسلامي.

والحق إنه لم يغب عن علماء الحديث، ومؤلفي كتب الفضائل أن الأحاديث المنسوبة إلى الرسولﷺ في باب فضائل القدس، وغيرها من المدن ليست كلها على مستوى واحد من الصحة والقبول (الألباني، د.ت)، وهذا ما صرح به شهاب الدين أبو محمود وأحمد بن محمد بن سرور المقدسي صاحب كتاب (مثير الغرام بفضائل القدس والشام) حيث قال: إن كتابه يحوي من الأحاديث الصحيح والحسن، فضلاً عن الغريب والموضوع والضعيف المحتمل، وأنه ترك ما روي من تلك الأحاديث عن طريق كعب الأحبار، ووهب بن منبه اللذيْن تنسب إليهما عادة غالبية الأحاديث والروايات التي يطلق عليها اسم الإسرائيليات (المقدسي، د.ت: 2)، ولكن ما لم يختلفوا حوله حديث شد الرحال الذي زعمت لاستروس أن راويه أبا هريرة رجل غير ثبت، ويضعفه الكثيرون. فلهذا الحديث 16 طريقاً، رواه ستة من الصحابة، ورواه عنهم اثنا عشر تابعيا، ورواه عنهم أربعة عشر من تابعي التابعين، وقد تواترت الطرق على ذكر المساجد الثلاثة التي تشد الرحال إليها (موسى البسيط، 1997: 69)، وقد وصفه ابن تيمية الذي يحتج المستشرقون بآرائه، ويزعمون أن فيها معارضة لقدسية القدس بأنه ثبت في الصحيحين عن النبيﷺ ومجمع على صحته ومستفيض متلقى بالقبول والتصديق من أهل العلم (ابن تيمية، 1303: 56، ومحمود إبراهيم، 1985: 50).

وبعد، فقد ظن نفر من المستشرقين أنهم قادرون على اختراق الوعي الإسلامي، وتقويض إجماع المسلمين على قداسة بيت المقدس، وتعظيم حرمتها في الإسلام حين

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

عمدوا إلى تأويل النصوص القرآنية، والتشكيك في الأحاديث النبوية أو صرفها عن مقاصدها ودلالاتها الحقيقية، ولكنهم -على ما يبدو- أخفقوا في تحقيق هذه الأهداف، الأمر الذي دفع الكثيرين منهم للبحث عن وسيلة أخرى تسعفهم بالوصول إلى غايتهم، وقد وجدوا ضالتهم في ما صدر عن بعض علماء المسلمين من أقوال واجتهادات يوحي ظاهرها أن فيه شيئا من المعارضة لقدسية بيت المقدس ومكانته في الإسلام وهو ما سنتناوله في الفقرة الآتية.

3- دعوى الاعتراض على قدسية بيت المقدس

حظيت هذه الفكرة باهتمام العديد من المستشرقين منذ أن كتب كستر بحثه حول حديث "شد الرحال" الذي سبقت الإشارة إليه،كما أسلفنا القول فقد حاول هذا الباحث من خلال الأحاديث والروايات المتناقضة التي جمعها دون تحوط أو تثبت من صحتها الإيحاء بأن ثمة معارضة قد برزت بين المسلمين منذ القدم لتقديس بيت المقدس، وتعظيم حرمتها، أو وضعها في مكانة تضاهي المكانة التي تحتلها مكة أو المدينة في نفوس المسلمين، وقد وجدت هذه المعارضة تعبيراً لها في أحاديث نُسبت إلى النبيﷺ منها حديث رواه ابن أبي شيبة عن الرسولﷺ قال: "لا تشد الرحال إلا إلى البيت العتيق" وحديث: "أحق المساجد أن يزار وتشد إليه الرحال المسجد الحرام ومسجدي" (Kister, 1969: 180-195).

وقد عبر إسحاق حسون في مقدمة تحقيقيه لفضائل الواسطي عن هذا الاتجاه فقال: "إن مضمون هذه الأحاديث يؤكد وجود بعض المعارضة في صفوف علماء المسلمين في النصف الأول للقرن الثاني للهجرة للاعتراف اعترافاً كاملا بحرمة المسجد الثالث، وإعطاء بيت المقدس مكانة مساوية لمكانة المدينتين المقدستين في الإسلام وهما: مكة والمدينة" (الواسطي، تحقيق إسحق حسُّون، 1979: 14).

ومع أن حسون يقر بأن أغلبية الأحاديث التي تتناول فضائل بيت المقدس، وتتحدث عن منزلتها في الإسلام، قد وضعت في أيام بني أمية، فإنه يفترض وجود

خلافات عميقة بين المسلمين حول قدسية القدس، وأن تلك الأحاديث أسهمت في إذكائها، وتوسيع شقتها، بل إنه يعزو التأخير في ظهور كتب فضائل القدس إلى ما وصفه "بالمعركة التي احتدمت بين مؤيدي قداسة المدينة ومنكريها" (الواسطي، تحقيق إسحق حسون، 1979: 15). ويورد حسون رواية منسوبة إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح كشاهد على الاتجاه المعارض لقدسية المدينة. فقد أوصى هذا الصحابي الجليل أن يدفن في الأرض المقدسة غربي النهر في "بيت المقدس"، ثم عدل عن ذلك، وطلب أن يدفن حيث يموت، فهذا العدول- في زعمه- يدل على أنه لم تكن للقدس تلك المكانة العظيمة عند المسلمين (الواسطي، تحقيق إسحق حسون، 1979: 16-18). والواقع أن نص الرواية كما قال محمود إبراهيم (1985: 66):

> يدل على عكس ماذهب إليه هذا الباحث، فقد ثبت أن أبا عبيدة كان متجها بالأصل إلى بيت المقدس لزيارة المسجد والصلاة فيه، وحين أحس بدنو أجله أوصى أن يدفن إلى جواره، وهذا دليل على أنه كان ينزل فلسطين والقدس في نفسه منزلة عظيمة، غير أنه خشي أن يشق على الصالحين من المسلمين من بعده إذا هو نقل من مكان موته إلى المدينة المقدسة، فآثر أن يخفف عن اللاحقين بعده كي لا يصبح دفن قادة المسلمين في أرض فلسطين سنة متبعة.

وهكذا فإن النتيجة التي رغب حسون وغيره من المستشرقين في الوصول إليها، التأكيد على أن القداسة التي أنيطت ببيت المقدس قد نجمت وترسخت نتيجة للتطورات السياسية والعسكرية التي شهدتها المنطقة في مراحلها التاريخية المتعاقبة (في آمنون كوهين، 1990: 106) غير أنها لم تكن يوماً محل إجماع بين المسلمين، وإنما كان هناك -حسب تعبير حوا لاتسروس- تيار عريض عبر عن معارضته لهذه القدسية، وعدها أمراً غريباً عن الإسلام ومشابهة لليهود، وقد وجدت هذه المعارضة صدى لها في مؤلفات الفقة والتشريع الإسلامي قديماً وحديثاً، فهناك -كما قالت- روايات كثيرة تحكي عن أشخاص نذروا أن يقيموا الصلاة في القدس، أو أن يحجوا إليها، فما كان من -النبي ﷺ- أو زوجه ميمونة أو عمر بن الخطاب إلا أن حاولوا ثنيهم عن الوفاء بنذورهم، وأشاروا عليهم أن

يقيموا الصلاة بدل ذلك في مكة أو في المدينة، وقد ذكر أن عمر بن الخطاب ضرب بدرته شخصين بعد أن رجعا من القدس قائلاً لهما : "حج كحج البيت؟!!" (في آمنون كوهين، 1990: 42).

ولعل القارىء يستدل من الاستفهام الاستنكاري في العبارة الأخيرة من رواية الفاروق عمر بن الخطاب أن كثيراً من المسلمين أوشكوا أن يجعلوا من بيت المقدس مزاراً ومحجاً شبيهاً بمكة المكرمة لقداستها، وعظم منزلتها في نفوسهم، وذلك يتناف مع المبادىء والقواعد المقررة في الشريعة الإسلامية، ولهذا حرص الرسولﷺ وخلفاؤه من بعده على التشديد في هذا الأمر، ووضعه في نصابه دون تزيد أو مبالغة، وهو نهج استلهمه العديد من المفكرين والفقهاء المسلمين فيما بعد في مؤلفاتهم، مثلما فعل العالم الكبير تقي الدين أحمد بن تيميه الحراني (ت 728 هـ 1328م) في مستهل القرن الثامن للهجرة في رسالته المسماة "قاعدة لزيارة بيت المقدس " التي اتكأ عليها غالبية المستشرقين، واتخذوا من مادتها وسيلة للنيل من قدسية القدس، ودليلاً على مكانتها الهامشية في التصورات الإسلامية[6]. والواقع إن ابن تيمية في رسالته السالفة لم ينتقص من قداسة بيت المقدس –كما ذهب أولئك المستشرقون– ولم يغضَّ من مكانتها، بل أراد أن يضعها في إطارها الصحيح دونما تجاوزات أو مبالغات لا تتفق مع عقيدة الإسلام، وتتعارض مع جوهر العبادة الصحيحة التي أقرتها شريعته السمحاء.

وبغض النظر عن الحدة التي عرض فيها ابن تيميه آراءه، فإن رسالته في مجملها تدل على عظم المكانة التي تحتلها القدس في نفوس المسلمين وضمائرهم؛ ذلك لأنها كتبت في فترة شعر صاحبها أن سمو المدينة وتعاظم قدسيتها عند المسلمين فتح الباب على مصراعيه للبدع والممارسات التي تخرج عن دائرة المشروع كطواف بعضهم حول الصخرة، وذبح الهدي والنذور والوقوف في عيد الأضحى، وغير ذلك من الأعمال الشاذة التي لا يقدم عليها سوى الجهال والضلال حسب تعبير ابن تيمية (في آمنون كوهين، 1990: 43).

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

ومن زاوية أخرى، فإن تخصيص ابن تيميه حديثه عن المسجد الأقصى، واقتصار رسالته عليه يدل على رسوخ مكانته في وجدان المسلمين، مما دفع قطاعاً عريضاً منهم إلى تعظيمه بسلوك سبل شتى من البدع والمنكرات الطارئة والمنافية للدين الإسلامي، فكان لا بد من الوقوف في وجه هذه الممارسات الشاذة والدعوة إلى محاربتها، ويمثل هذا المنهج في الواقع خطاً ثابتاً في فكر ابن تيمية التزم به في كل الأحوال التي رأى أن فيها شذوذاً عن الإسلام، وخروجاً عن قواعده، سواء تعلق الأمر بالمسجد الأقصى أم بغيره من المساجد.

يبقى بعد ذلك الادعاء بأن تلك المعارضة لقدسية بيت المقدس التي أبداها غير واحد من العلماء والمفكرين المسلمين القدامى، وجدت لها أصداء في العصر الحديث تمثلت حسب ما قالت حوا لاتسروس فيما كتبه الباحث المصري محمود أبو رية الذي توفي مؤخراً دون أن يكون له سامع أو متبع، لأن قدسية المدينة قد ضربت جذوراً عميقة في أفئدة المسلمين، وهي تقوى اليوم تحت تأثير الظروف السياسية القائمة (محمود أبو رية، 1951: 484-487). والحق إن ما كتبه محمود أبو رية لا يعدو كونه نقلاً لما أقدم عليه بعضهم من نقل غير متحرز للروايات الإسرائيلية، ومحاولة زجها في كتب الفضائل دون تثبت أو تمحيص، بالرغم من كونها ستاراً تختفي وراءه الأهداف الحقيقية لأسلمة اليهود الذين بثوا تلك الروايات والأحاديث في فضائل الشام خاصة، وساعدوا على نشرها إذكاءً لنار الفتنة في الدولة الإسلامية (في آمنون كوهين، 1990: 12).

وبعد، فقد تبين لنا من العرض السابق أن العديد من المستشرقين أجهدوا انفسهم في تأويل النص القرآني، وعمدوا إلى التشكيك في صحة الرواية الإسلامية التي تربط بيت المقدس بالإسلام، وذلك بهدف التشويش على تلك المكانة وقداستها لدى المسلمين، غير أنهم أدركوا في النهاية عمق الرابطة التي تشد المسلمين إلى بيت المقدس، وتأكد لديهم أن قداسته تزداد رسوخاً في وجدان المسلمين، وأن من العسير عليهم النفاذ من هذا الجانب، فاتجهوا بأنظارهم صوب تاريخ المدينة لعلهم يجدون بين أحداثه دليلاً يدعم توجهاتهم بأن قداسة بيت المقدس لم يكن عليها إجماع في أية فترة من فترات التاريخ.

خاتمة

في ختام هذه الجولة في أعمال المستشرقين اليهود تتبدى أمام الباحث مجموعة من الملاحظات حول المنهج الذي استخدمه أولئك في تقرير أحكامهم، وصياغة نتائج أبحاثهم التي قرروها سلفاً، وحاولوا التدليل عليها وإثباتها بعد ذلك بأدلة وشواهد محددة تكررت في أعمالهم، وعرضت باعتبارها حقائق مسلمة دون تثبت أو تدقيق في صحتها، أو مطابقتها لشروط الرواية والراوي كما حددتها كتب الجرح والتعديل في المصادر التراثية العربية والإسلامية، أو حسب ما تقتضيه متطلبات البحث العلمي المجرد والنزيه .

ولعل السبب في ذلك –حسب ما أوضح الباحث– أن كثيراً من أولئك المستشرقين كانوا يعولون أساسا على المصادر والمراجع اليهودية فحسب، وكان كل منهم يتكىء على الآخر ويفيد مما توصل إليه من نتائج وما استشهد به من نصوص دون أن يراوده إحساس بضرورة التثبت منها أو مراجعتها، أو حتى نقضها واستبعادها إذا تبين له أن فيها خللاً ما في روايتها أو تأويلها .

ولعل من أبرز الكتاب الذين أضحت كتاباتهم مرجعاً يعتد به في الدراسات الاستشراقية اليهودية المعاصرة، أجنتي جولدتسيهر والبروفسور كستر وشلومو غويتن، وإيمانويل سيفان، فقد لاحظ الباحث أن غالبية الأفكار التي ابتدعها أولئك، وحاولوا من خلالها توهين الروابط التي تشد المسلمين إلى بيت المقدس انتقلت إلى اللاحقين من المستشرقين، وراجت في أعمالهم كحقائق لاتقبل النقاش أو الجدل، ومن ذلك تأويلهم لبعض الآيات القرآنية، وتشكيكهم في الأحاديث النبوية الشريفة، والتقاطهم للروايات التاريخية الضعيفة والمتناقضة لدعم مواقفهم وتوجهاتهم .

وقد أدى هذا المنحى إلى وقوع العديد من أولئك الباحثين في مطب التناقض الذي بلغ درجة الإسفاف في بعض الأحيان، وقد أشار البحث إلى أمثلة من ذلك تجلت في أعمال نفر من المستشرقين مثل يهوا شواع بن آريه واسحق حسون ويوسف درووري وغيرهم، فالعديد من هؤلاء كانوا يرفضون الأخذ بمضمون أحد الأحاديث أو الروايات التاريخية لكون راويها الذي أسندت له ضعيفا وغير ثبت، ولكن الغريب أن أولئك

الكتاب كانوا يأخذون بأقوال هذا الراوي ويستشهدون بها إذا كان مضمونها يتلاءم مع أهدافهم، وذلك دون الإشارة أو مجرد التلميح إلى ضعفه أو تدليسه كما فعلوا سابقا.

وختاما فقد لاحظ الباحث أن المستشرقين في إشارتهم لأحداث التاريخ اليهودي كانوا يبحثونها من منطلق الوحدة والتكامل، وفي المقابل كانوا يعمدون إلى تجزئة التاريخ العربي الإسلامي الممتد منذ خمسة عشر قرنا إلى فترات مختلفة، ويتناولون أحداثها على أنها وحدات مستقلة لاتمت إحداها بصلة إلى أخرى، فهناك –حسب رأيهم– فترة الحكم العربي الممتدة من سنة 637–1099م، وهناك فترة الحكم الصليبي، وفترة الحكم المملوكي وفترة العثمانيين، وللأسف فقد وجد من الباحثين العرب من يجاريهم في هذه القسمة دون أن يدركوا مخاطرها والأهداف الكامنة وراءها، وأهمها سعيهم الدائب إلى إثبات أن قداسة بيت المقدس ومكانتها عند المسلمين كانت تتذبذب وتتراوح مداً وجزراً حسب التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية بمعنى أن تلك القداسة لا تنبع من عوامل ذاتية، ولا تتصل بالنواحي الدينية بقدر تأثرها وخضوعها للمؤثرات الخارجية والتطورات السياسية المتعاقبة.

والواقع أن قداسة بيت المقدس وأهميتها عند المسلمين، لا ترتبط بمرحلة تاريخية دون أخرى، ولم تخضع نظرة المسلمين إليها وإجماعهم على تعظيمها للتغير أو التبديل وفق المتغيرات السياسية، بل هي –كما أشار البحث– نابعة من صميم التصورات العقدية الإسلامية، ومرتبطة بها ارتباطا وثيقا لا تنفصم عراه، ومن هنا فإن البحث في هذه المسألة لا يستدعي التدليل أو الاستشهاد أو الرد والمناقشة، ولا يستدعي الإفاضة في الحديث عن منزلتها وفضائلها، لأن الحديث عن ذلك لا يرتقي إلى حقيقة أنها قد تقررت في كتاب الله وسنة رسولهﷺ وتأكيدا لهذه الفكرة، فإني أسوق حديثاً ختم به أبوبكر الواسطي كتابه عن "فضائل البيت المقدس" وما ختمه به إلا لمغزى، فقد ورد عن خالد بن حازم قوله :"قدم الزهري بيت المقدس، فجعلتُ أطوف به في تلك المواضع، فيصلي فيها. قال: قلت:إن هاهنا شيخا يحدث عن الكتب يقال له عقبة بن أبي زينب فلو جلسنا إليه، قال: فجلسنا إليه، فجعل يحدث عن فضائل بيت المقدس، فلما أكثر قال الزهري: أيها الشيخ لن تنتهي إلى ما انتهى الله إليه حين قال: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ" (الواسطي، تحقيق اسحق حسون، 1979: 206). فلو لم تكن لبيت المقدس غير هذه الفضيلة لكفى.

المصادر و المراجع

أولاً: الكتب العربية

إبراهيم، محمود (1985) *فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة* (الكويت: معهد المخطوطات العربية).

الألباني، محمد ناصر(د.ت) *تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق للربعي* (دمشق: المكتب الإسلامي).

ابن تيميه الحراني، تقي الدين أحمد (1303هـ) *قاعدة في زيارة بيت المقدس من مجموع الرسائل الكبرى* (مصر).

الخالدي، صلاح (د.ت) *حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية* (الخليل: دار المستقبل).

دياب، محمود (1976) *الصهيونية العالمية والرد على الفكر الصهيوني المعاصر* (بيروت: مطبعة الشعب).

شيكل، هادية دجاني وآخرون (د.ت) *الصراع الإسلامي الغربي على فلسطين في القرون الوسطى* (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية).

قاسم، عون الشريف (1979) *الرسالة الخاتمة* (بيروت: دار القلم).

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد النصاري (1986) *مختصر تفسير القرطبي* (بيروت: دار الكتاب العربي).

قطب، سيد (1987) *في ظلال القرآن* (القاهرة: دار الشروق)، ط4.

ابن كثير، علي بن أبي الكرم (1966) *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار صادر، ودار بيروت).

كوهين، آمنون (1990) *القدس دراسات في تاريخ المدينة*(القدس: ياد يتسحاق بن تسفي).

المقدسي، شهاب الدين أحمد بن محمود بن سرور (د.ت) *كتاب مثير الغرام لفضائل القدس والشام*، تحقيق أحمد سامح الخالدي (يافا: المطبعة العصرية).

الواسطي، أبو بكر محمد بن أحمد (1979) *فضائل البيت المقدس*، تحقيق اسحق حسون (القدس: دار ماغنس للنشر).

اليعقوبي، أحمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب (1358هـ) *تاريخ اليعقوبي* (النجف).

ثانيا: المقالات

أبو رية، محمود (1951) مجلة الرسالة المصرية (العدد 944، 6/ 8).

البسيط، موسى (1997) "قدسية القدس في الإسلام والبعد التربوي"، مجلة الإسراء (العدد 13، رجب/ شعبان 1418هـ تشرين ثان/ كانون أول 1997).

الخالدي، وليد (1997) "الإسلام والغرب والقدس"، مجلة الدراسات الفلسطينية (العدد 31، صيف 1997).

الضامن، مشهور (1997) "الإسراء والمعراج أول فتح إسلامي روحي لفلسطين"، مجلة الإسراء (العدد 13، رجب/شعبان 1418- تشرين ثاني/كانون أول 1997).

الغزاوي، خالد (1997) "لماذا كان العروج من بيت المقدس"، مجلة الإسراء (العدد 13، تشرين ثان/كانون أول 1997).

ثالثاً: المراجع الاجنبية

Hasson, And Others (nd.) *Symposium Muslim Literature in praise of Jerusalem.*

Kister, M.J (1969) *You Shall Only Set Out For three Mosques. A Study of an Early Tradition,* In Le Museon. Lxxx11.

Liven, Ofer (1985) *The Sanctity Of Jerusalem in Islam according to the Fadail al-Quds Literature,* PhD thesis Submitted for Degree Doctor of philosophy, Hebrew University.

Prawer, J. (1972) *The World Of the Crusaders,* New York and Jerusalem.

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

الهوامش

1 سعى أنصار مذهب "صدام الحضارات" إلى عزل الإسلام عن الديانتين السابقتين له واعتباره خارج إطار التراث اليهودي المسيحي، مع أن الإسلام يشكل في الواقع ذروة هذا التراث وسنامه، انظر: (وليد الخالدي، 1997: 6- 8).

2 أنظر نموذجا لأقوال هؤلاء في: (صلاح الخالدي، د.ت: 106)، وهادية دجاني شيكل وآخرون، د.ت: 10)، ومشهور الضامن، 1997: 9).

3 لمزيد من البيان حول هذه الدلالات أنظر: (صلاح الخالدي، د.ت: 106)، وسيد قطب، 1987)، وخالد الغزاوي، 1997: 24).

4 راجع هذه الأحاديث في: المنذري، الترغيب والترهيب من الحديث 3: 63 رقم 1775، السيوطي، الجامع الصغير 2: 10، السمهودي، وفاء ألوفا بأخبار المصطفى 2: 256-257.

5 يدل على ذلك أن الباحث حاول في البحث نفسه الذي أورد فيه شكوكه حول رواية اليعقوبي أن ينفي صفة المسجد عن الصخرة المشرفة حيث قال: "لقد صار بناء الصخرة في نظر المسيحيين واليهود، وبعد مضي قرون قليلة من الزمان رمزا وشكلا لهيكل سليمان، وليس مسجدا وإنما نصبا تذكاريا للمجد". (في آمنون كوهين، 1990: 7).

6 أنظر مثالا على ما قاله غويتن: "إن هذا العا لم الكبير، ويعني ابن تيميه خرج علانية ضد قدسية القدس" (في آمنون كوهين، 1990: 14). وكرر اسحق حسون هذه المقولة حيث قال: "إن أقوال ابن تيميه كانت بمثابة القول الفصل لفض الخلافات الجمة بين علماء المسلمين حول مكانة القدس، ولا سيما أن الأحاديث التي نسبت إلى النبي وأكابر الصحابة لم تتفق في ما بينها على ذلك" (الواسطي، تحقيق اسحق حسون، 1979: 15-16)، (ابن تيميه، 1303: 58).

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org